

تحدي إعجازي ورعشة إنسان

في عصر الأنوار كانوا يشبهون العقل بالضوء، وفي عتمة السجن البهيمية وكآبته السوداء، وفي محاولة للتصدي للواقع الكئيب والمأزوم بالعتمة والظلمة أطلق نائل البرغوثي على نفسه صفة النور، بأن أسمى نفسه أبا النور، في محاولة جادة منه، بإعادة تشكيل واقعه المريع بما يتأقلم مع إرادة الإنسان المناضل بقوته الداخلية التي لا يستطيع السجان أن يصل إليها وسموه بذاته وحده الملون بالانتماء وبشرفه بالحرية وشموسها المنيرة.

أرادت إسرائيل من خلال سجونها التي تقف لكل مقومات الحياة الإنسانية، أرادت أن تدمر الرمز الإنساني والوطني للفلسطيني الثائر، وانعكست فعليه الاحتلال على شكل برامج ممنهجة، تهدف منها لسلخ الإنسان الفلسطيني المتمرد وتحويله إلى شبح خالي من أية مضامين إنسانية ووطنية وثقافية، لكن 42 عام من الأسر، أكثر من نصف عمر دولة الاحتلال تفوق فيها أبو النور على أعدائه بإنسانيته التي لم تجافي التفاؤل والأمل، واستطاع من خلالها أن يستخرج من الموت والبطش والحرمان القدرة على اختراع الحياة، وأن يولد من العذابات الفرح، وأن يسترد (عافية) الحياة من عدم السجون، وأن يضحك وفي عينه مئة دمعة، وأن يواجه برباطة جأش المحن، اثنان وأربعين عاماً من المنفى بالسجن داخل الوطن، فقدان الأحبة الأب الأم الأخ الوحيد ابن الأخ الشهيد، الحرية بعد ثلاثة عقود ونصف، وكابوس إعادة الاعتقال المستمر.

لقد تجلى التفوق الإنساني بهذا التحدي الإعجازي، الذي يظهره أبو النور، من خلال وعيه الوطني المقاوم وانتماءه الشغوف والمتجذر في الأرض، الوطن والإنسان وبروحه العنيفة الحرة المحلقة عالياً، كما الطير في كبد السماء غير قادرة للترويض والاختزال، وقلبه الصلب كصخر البازلت بيد أنه يفتح قلبه للحب لشريكة عمره ورفيقة نضاله إيمان، أبو النور كموج البحر المتجدد مغرماً بالحياة وينبض حباً.

حين استشهد صالح كان أبو النور معنا في محتجز هداريم، وحين وصل الخبر، هرعنا لمواساته، وهو الذي يعد صالح وعاصم أبناء أخيه أولاده الذين لم يرزق بهم، وجدناه منتصباً وحزيناً، وقبل أن أعانقه قلت له: أنت رجل مؤمن.

قال: الإيمان ضروري، وإلا مزقنا إلى أشلاء هذا العدو الظالم.

قلت: لا أظن أن أحداً مارس أعلى درجات الحب لوطنه وشعبه مثلما فعلت يا أبا النور.

فرد بصوت أكله الحزن والتعب: الحب الصادق يعلمنا الإيثار، لقد كان صالح قطعة من قلبي لكن حرية شعبي غاية مناي.

قلت: إن وطنيتك تمارس نفوذها عليك حتى في أحلك اللحظات؟

ارتعش جسد أبي النور واكتفى بهز رأسه إلى الأمام بتثاقل، وكأنه ينحني أمام عملاق اسمه الوطن، عانقته بقلبي علي أستطيع أن أخفف عنه بعضاً من الكم الهائل من الآلام التي استوطنت قلب أبي النور.

لم يحلم أبو النور برشفة من القمر ولا بركوب الغيم ولا حتى بمداعبة نجوم السماء، لم يحلم برحلة إلى شواطئ النورماندي، ولا إلى بحيرة جنيف، كانت أقصى رغباته أن ينعق شعبه من نير الاحتلال وأن تهوي السجون، وأن يعيش شيخوخته في الريف الفلسطيني مزارعاً، ومعه بضع رؤوس من الغنم.

يا صاحب القدرة الفذة على المواجهة ورفض السجن، أيها البليغ بعطائه والمدمن بفلسطين، يا نبضنا، يا إنسانيتنا السماء، يا نورنا رغم كثافة العتمة، المجد لك، الحرية تقخر بك، إنساناً، ومناضلاً، طوبى إلى النفوس العالية التي تهوى الإباء والتي مهنتها اختارت صناعة الأمل وحراسة عيون الوطن رغم الضياع، دام الأمل.

أخوك المناضل الأسير وسيم مليطات.